مدخل إلى نظرية تحليل الخطاب في الفكر اللساني الحديث

توطئة

إذا كانت العلوم اللغوية المختلفة تعنى بوصف النصوص، فإن ذلك يتم طبقا لمناهجها، ووسائلها وأهدافها المختلفة، فقد تولت البلاغة ونقد الشعر بمختلف اتجاهاته دراسة الأبنية اللسانية الخاصة والوظائف الجمالية والبرهانية للنصوص والأقوال الأدبية، فقد اهتم البلاغيون – مثلا – بدراسة بعض المظاهر الخطابية قصد إبراز وعيهم بتماسك الخطاب، وانسجام بنيتيه الشكلية والدلالية مع بنية العالم المعبر عنه، فالبلاغة تسعى إلى الرقي بالخطاب إلى مستوى تعبيري قادر على شدّ انتباه المتلقي والتأثير فيه.

لقد انطلقت مباحث عددية في علم البلاغة من منطلق المعالجة النصية لظواهر الإيجاز والفصل والوصل، بل نظرية النظم نفسها أكدت النّظام والاتساق بين الكلمات والعبارات والدلالات الكلية والخاصة، يقول **الجرجاني** (ت٤٧١هـ) في هذا السياق **"وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك لأنك تقتضي في نظمها آثار المعاني، وترتيبها في الكلام حسب ترتيبها في النفس، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه ببعض،**

وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء كيف جاء واتّفق. وكذلك كان عندهم نظير للنسيج والتأليف والصياغة والبناء (...) وما أشبه ذلك مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض (...)، والفائدة في معرفة هذا الفرق أنك إذا عرفته عرفت أن ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت على معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل (...)، واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك، علمت علما، لا يعترضه شك، أن لا نظم في الكلم، ولا ترتيب، حتى يعلق بعضها ببعض ويبنى بعضها على بعض وتجعل هذه سبب من تلك (...)، وننظر إلى التعليق فيها والبناء وجعل الواحدة منها بسبب من صاحبتها ما معناه وما محصوله"[1].

كما أسهم المفسرون أيضا بنصيب وافر في كشف التماسك الدلالي للنص القرآني، في ضوء مفهوم المناسبة بين الآيات والسّور، وأما في النظر اللغوي الحديث فقد حملت اللسانيات على عاتقها مهمة وصف وتحليل الأبنية النحوية التي يقوم عليها النص ممثلة في الجمل، بالإضافة إلى الاهتمام بالشروط والخواص التي تتصل بالسياقات المختلفة التي تستعمل فيها التراكيب.

إن المتتبع لمسيرة اللسانيات، وتطورها النظري والمنهجي يستشف تلك الرغبة في تجاوز البنية اللغوية المغلقة إلى فضائها التداولي والسياقي، والذي يضمن إدراكا لأبعاد التبليغ الأدبي في ضوء التبليغ اللغوي العام، وكذلك كان اهتمام كل من علم النفس وعلم الاجتماع وعلم التربية متوجها نحو الطرق المختلفة لفهم النصوص، وكيفية استيعابها وإعادة صياغتها، إذ يقوم علم النفس الاجتماعي وعلوم الاتصال

---

(١) عبد القاهر الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي. مكتبة القاهرة، ١٩٨٠، ص ٩٨-١٠٢.

الحديثة – مثلا – بالبحث عن التأثيرات التي تحدثها الأبنية اللغوية للنصوص على آراء وسلوك المتلقين وطرق تفاعلها لتحديد الأشكال النصية للتواصل في مختلف المواقف.

في سياق مقابل اتجهت النظرية النقدية إلى استثمار الأنظار النفسية المختلفة من سلوكية وتحليل استبطاني وجشطلتي في تحليل الأبنية اللغوية الظاهرة والكامنة في الخطاب الأدبي، وإذا كانت هذه العلوم المختلفة تتفق في فكرة المادة الأساسية التي يبنى عليها البحث والتحليل والفهم، ألاّ وهي "النصوص"، إلاّ أنها تختلف في تحليلها وكيفية توظيفها.

إن التطور الذي حدث في العقدين الأخيرين من هذا القرن، هو الذي أدى إلى أن تصبح مشكلات تحليل النصوص وأهدافها في فروع علمية مختلفة[٢]، موضوعا لدراسة متكاملة شكلت مجالا معرفيا عرف بـ **"لسانيات النص"** أو **لسانيات الخطاب** "Linguistique textuelle"، فشرع الدارسون منذ فترة مبكرة من القرن العشرين في التدرج نحو دراسة الخطاب الذي يظل من هذا المنظور الأولى بالعناية من أي نسق آخر ينتجه فعل التلفظ.

١ – لسانيات الخطاب، لحظة التأسيس

كان لنشأة اللسانيات على يد اللغوي السويسري **"فردينان دي سوسير"** (F.D.Saussure)[٣] أثر كبير في تطور مناهج لغوية ونقدية تعنى ببنية النص ذاته وبمعايير

---

(٢) صلاح فضل، **بلاغة الخطاب وعلم النص**، الشركة العالمية للنشر، لونجمان، ط١، ١٩٩٦، ص ٣١٩

(٣) لقد حظيت اللغة بنصيب وافر من الدراسة منذ القديم، لإدراك الإنسان منذ الأزل لأهميتها القصوى في حياته الفكرية والشعورية، فهي وسيلته الفضلى في التواصل مع بني جنسه، وأداته المثلى لتصور العالم واختزال موجوداته في أشكال علامية ما تلبث أن تترسّخ في عقله الجمعي

بنائه، في ضوء رؤية وصفية آنية تستبعد مؤقتا الدراسة التاريخية، وتعلن مبدئيا عدم وثوقية نتائجها في ضل غياب وصف ممعن للحدث اللغوي في لحظته الراهنة[٤].

لقد كان لتفريقه بين اللغة (Langue) والكلام (Parole) أثر مهم في توجيه البحث نحو العناية بالنسق الثابت، والبنية المغلقة، وتحليل النصوص الأدبية من الداخل، من خلال وصف العلاقات النسقية التي تربط بين وحدات اللغة في مستوياتها المختلفة[٥]، وفي تركيز البحث على المقومات الشكلية التي ينهض عليها أي عمل لغوي بذاته، وكانت رؤيته منطلقا لأعمال اتجاهات لغوية ونقدية وأسلوبية متعددة لعل أبرزها في أوربا حلقة "كوبنهاجن" بزعامة **برووندال وهيلمسليف**، وحلقة "براغ" بريادة **رومان ياكبسون**[٦] الذي أكد في سياق حديثه عن الشعرية بوصفها نظرية في تحليل بنية النص الأدبي إلى ضرورة تجـاوز القصور التحليلي الذي تميزت به التحاليل البنوية[٧] التي

بفضل الشيوع والتداول القصدي، وبتطور الفكر الإنساني وازدهار الحياة الحضارية تطورت الأفكار الباحثة في هوية اللغة ووظيفتها وأنساقها الصوتية والتركيبية والمعجمية والدلالية، فعرف تاريخ اللغة نظريات شتى تمثل حلقات تطور المعرفة اللسانية إلى حصول استقرار نسبي لها اليوم، في اللسانيات النظرية التي أرسى دعائمها **سوسير** (F.D.Saussure) وتلامذته في أوروبا و**بلومفيلد** (bloomfild) وتلامذته في أمريكا. عن هذا المشغل التأريخي يمكن مراجعة Bertil.Malmberg, les nouvelles tendances de la linguistique, presses universitaires de France, 1972,p 241.

(٤) F.De.saussure , cours de linguistique generale ,Payot.1983, p128

(٥) op .cit,p78

(٦) محمد حماسة عبد اللطيف، **الإبداع الموازي - التحليل النصي للشعر**- دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠١، "ص ٣٤". وانظر حشرا لهذا المعنى التأريخي R.H.Robins,Breve histoire de linguistique de Platon a Chomsky,pp103.

(٧) يقال بنية وبنيوي وبنوي على زنة قريش وقريشي وقرشي.

توقفت عند حدود الجملة مع أن النص ليس مجرد جملة ممتدة كما حلى لبعض النحويين وسمه[٨].

ناهيك عن جهود الشكلانيين الروس التي انصبت جميعها في مصب العناية بالأثر الأدبي من حيث هو نظام نصي تتفاعل فيه الأنساق الخطابية والاجتماعية محققة القيمة الجمالية، وإن كان منهجهم الشكلاني واضح المعالم في ترسم خطى الهيكل والإطار الذي تنتظم به وفيه العلامة اللغوية بوصفها اختزالا للحقائق والقيم الجمعية.

إن تطور العناية بالنص من ناحية قواعده الشكلية التي تؤشر لسنن انتظامه حفز على نشوء ما عرف بنحو النص (La Gramaire du texte) في أكثر من مكان وبأكثر من صورة، تتنازعه أهواء مدرسية متباينة أحيانا في خططها النظرية الكبرى، ومتوافقة أحيانا في أصولها المعرفية والمنهجية مع اختلافات إجرائية يكشفها الانتساب إلى الاتجاه الألماني أو الفرنسي أو الأمريكي، وما يمكن الإقرار به مبدئيا أن **نحو النص** اتجاه جديد في دراسة تماسك النص، ناشئ في رحم البنيوية الوصفية الغربية بفرعيها الأوربي والأمريكي، ومتخلق من مادتها الشكلية، بخاصة التوجه المدرسي الذي اختط معالمه الأولى "ز. هاريس"[٩] (Z.Harris) في بحث اكتسب أهمية منهجية في تاريخ اللسانيات

---

(٨) A.J.Michel , linguistique textuelle mdes genres de discourse aux texts mpAris m Nathan, 1999, p 25-26.

(٩) يكاد يجمع كل المتحدثين عن الخطاب وتحليل الخطاب على ريادة ز. هاريس في هذا المضمار، فهو أول لساني حاول توسيع حدود موضوع البحث اللساني ليتعدى الجملة إلى الخطاب، محمد الشاوش، **أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية "تأسيس نحو النص"**، المجلد الأول المؤسسة العربية للتوزيع، بيروت، ط١، ٢٠٠١ "ص ٣٨" وسعيد يقطين، **تحليل الخطاب الروائي (الزمن- السرد- التبئير)**، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط٣، ١٩٩٧، "ص ١٧"

الحديثة فيما بعد، يحمل عنوان **"تحليل الخطاب"**، وقد نشر هذا البحث لأول مرة سنة ١٩٥٢م في مجلة Languages (n° 13 mars 1969).

لقد كان **هاريس** أول لساني يعدّ الخطاب موضوعا شرعيا للدرس اللساني، كما قدم منهجا لتحليل الخطاب المترابط، واهتم بتوزيع العناصر اللغوية في النصوص، والروابط بين النص وسياقه الاجتماعي[١٠]، مستخدما إجراءات اللسانيات الوصفية بهدف اكتشاف بنية النص، ولكي يتحقق هذا الهدف فإنه لابدّ من تجاوز مشكلتين وقعت فيهما الدراسات اللغوية الوصفية والسلوكية وهما في نظره[١١]:

أولا: قصر الدراسة على الجمل والعلاقات فيما بين أجزاء الجملة الواحدة، إذ لابد من تجاوز ذلك إلى ما هو خارج الجملة.

ثانيا: الفصل بين اللغة والموقف الاجتماعي، مما يحول دون الفهم الصحيح، ومن ثم اعتمد منهجه في تحليل الخطاب ركيزتين هما: العلاقة التوزيعية بين الجمل، والربط بين اللغة والموقف الاجتماعي، مؤكدا أنه بالإمكان تصور تحليل الخطاب انطلاقا من ضربين من المسائل هما في الحقيقة أمران مترابطان؛ أما الأول فيتمثل في مواصلة الدراسة اللّسانية الوصفية بتجاوز حدود الجملة الواحدة في نفس الوقت، وأمّا الثاني فيتعلق بالعلاقة بين الثقافة واللغة[١٢].

---

(١٠) صبحي إبراهيم الفقي، **علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دراسة تطبيقية على السور المكية**، ج١، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠، "ص ٢٣"

(١١) جميل عبد المجيد، **البديع بين البلاغة واللسانيات النصية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨، "ص ٦٥"

(١٢) محمد الشاوش، **أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية**، منشورات كلية الآداب، منوبة، تونس، سنة ٢٠٠١، ص٣٨-٣٩.

شهدت اللسانيات منذ منتصف الستينات في أوربا ومناطق أخرى من العالم توجها قويا نحو الاعتراف بنحو النص بديلا موثوقا بمنهجيته التحليلية لنحو الجملة، وفتحت للدرس اللساني منافذ كان لها أبعد الأثر في دراسة اللغة ووظائفها النفسانية والاجتماعية والفنية والإعلامية[١٣]؟.

لقد كان تصور **هاريس** لما ينبغي أن يعتد به التحليل اللغوي الشكلي للخطاب فاتحة خير للدراسات النصية الغربية، إذ سرعان ما أعلن بعض الدارسين الأوفياء للبنوية انزعاجهم من صورنة الشكل اللغوي، والبحث عن قيمة له خارج المعطى السياقي، وقد تمثل هذا التبرم العلمي لسانيون كثر منهم **فيرث** (Firth) و**هايمز** (Himse)[١٤] و**أوستن** (Austine) و**غرايس** (Grice)[١٥].

كما ظهرت دراسات مهمة انتحت منحى تطبيقيا يعرض لسمة التماسك النصي في نظام لغوي بعينه بخاصة ما قدمه **هاليداي** (M. Halliday)، و**رقية حسن** (Ruqaiya Hasan) في كتابهما cohésion in English، (الاتساق في اللغة الانجليزية) سنة ١٩٨٦، وما قدمه أيضا اللغوي الهولندي **"تون فان ديك"** (T. Van. Dick) في كتابين له أولهما (some expects of texte grammer) سنة ١٩٧٢، (بعض وجوه نحو النص)، والثاني

---

(١٣) سعد مصلوح، **"نحو أجرومية للنص الشعري، دراسة في قصيدة جاهلية"**، مجلة فصول، المجلد العاشر، العدد١-٢، سنة ١٩٩١، ص١٥٣.

(١٤) كان لهذا اللغوي دور بارز في تأكيد العناية بالمقام، ودراسة مقاصد المتكلمين باعتبارها أهم محدد للدلالة، وكيفية تعامل المستقبلين للرسالة اللغوية، ولمزيد من التوسع حول التصور النظري الذي تبناه هايمز يمكن الرجوع إلى Hymes .D,modele pour l interaction du langage et de la vie sociale min Etudes de linguistique appliqué ,Didier ,1980, p130-133.

(١٥) Sarfati,G.E, Elements d analyse du discourse ,Paris ,ed Nathan, p12-13

(Text and context) سنة ١٩٧٧م أو (النص والسياق)[١٦]، وقد سعى في هذين الكتابين إلى تبيان أوجه عدم كفاية نحو الجملة لوصف ظواهر تتجاوز حدود الجملة.

غير أن ذلك لا يعني رفض مقولات نحو الجملة أو التقليل من أهميتها وقيمتها أو التشكيك في صحتها، فبالرغم من أشكال النقد التي وجهت إلى نحو الجملة لا تعني أنه لم يعد له قيمة، وأنه قد عفا عليه الزمن، وأن كل هذا التراث النحوي الضخم السابق لأجيال متعددة لم يعد له مكان، فقد كان التراث النحوي السابق بكل ما يضمه من تصورات ومفاهيم وقواعد ووصف وتحليل الأساس الفعلي الذي بنيت عليه هذه الاتجاهات النصّية.

إن الأمر بالنسبة إلى **"فان ديك"** وغيره من علماء النص يمكن أن يتحدد في أنه قد تحتم بعد إدخال عناصر دلالية وتداولية إلى الوصف والتحليل اللغويين أن يتغير الإطار الأساس الذي يضم الجملة، لأنّ الحاجة أصبحت ماسة إلى وضع مفاهيم ومقولات جديدة تضم عناصر لغوية وغير لغوية، لم تجد مكانا متسعا في نحو الجملة[١٧]، فهذا الإطار لم يعد كافيا لاستيعاب العناصر السابقة، بخاصة أنه لم يعد ينظر إليه من حيث كونه وحدة أساسة للوصف النحوي بل عدّ النص بأكمله - على الرغم من الاختلاف الشديد حول مفهومه - وحدّة أساسة لا تستوجب تحولا كمّيا في المعايير.

إن هذا الإطار الموسع يدفع إلى تغير كيفي، وبغض النظر عن طبيعة هذه الإسهامات فإن الأكيد أنه حصل شكل من الإجماع على ضرورة التغيير وفق منهجية

---

(١٦) سعيد حسن بجيري، **علم لغة النص "المفاهيم والاتجاهات"**، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ط١، ١٩٩٦، "ص و١٣٤و ٢١٨" **وظواهر تركيبية في مقاسات أبي حيان التوحيدي، دراسة في العلاقات بين البنية والدلالة**، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ١٩٩٥، "ص ٢٣٧"

(١٧) فان ديك، **النص بنياته ووظائفه**، ترجمة محمد العمري، ص٥٨.

لا تغفل الجملة ولكنها لا تعدها أكبر وحدة قابلة للتحليل اللساني، بل تنظر إليها من زاوية علاقاتها ببقية الجمل الأخرى المكونة للنص، بالإضافة إلى علاقاتها بالسياق الذي أنتجت فيه، وبمنتجها وبمستقبلها.

كما تناول **"براون ويول"** Browan et yole سنة ١٩٨٣ موضوعات متعددة تتصل ببناء الخطاب وانسجامه والأعراف التداولية التي يقوم عليها، إلى جانب مسألة الفهم النصي في كتابهما تحليل الخطاب Analyse de discours، كما تعد نظرية الحديث التي وطّأ لها الفرنسي **إميل بنفنيست** ركنا مهما في لسانيات النص بوصفها تمظهرا للسانيات التلفظ عنده.

لقد ربط هذا اللغوي اللغة بالثقافة والشخصية محددا طبيعة كونها ممارسة اجتماعية تخلق التصور الذهني الخاص والجمعي، ومحاولة الاقتراب إلى حياض الدلالة فيها مرتهن بمدى التعاون الذي يبديه المحلل مع السياق الاجتماعي الذي تختزله فيه اللغة بوصفها منظومة من الملفوظات والخطابات الفاعلة(١٨).

يرى **روبيرت دي بوجراند** (R.ebougrand) أن اللسانيات مطالبة بضرورة متابعة الأنشطة الإنسانية في التخاطب إذ إن جوهر اللغة الطبيعية هو النشاط الإنساني ليكون مفهوما ومقبولا من لدن الآخر في اتصال مزدوج، وهذان المتخاطبان وعلاقة كل منهما بالآخر لا ينبغي أن ينسيا أبدا إذا أردنا فهم طبيعة اللغة ووظيفتها الاجتماعية(١٩).

في هذا السياق التفاعلي للغة تتنزل التصورات التداولية والوظيفية برمتها، فقد نعى التداوليون بالرغم من عدم إنكارهم لأهمية التحليل اللساني الشكلي على البنويين

---

(١٨) E.Benveniste, Problemes de linguistique Generale ,ed,Gallimard, p16

(١٩) دي بوجراند، **النص والخطاب والإجراء**، ترجمة تمام حسان، القاهرة: عالم الكتب، ط١، ١٩٩٨ ص ١٢٦. وانظر هذا المعنى في سعيد يقطين، **انفتاح النص الروائي**، ص١٦.

تقصيرهم في الاحتفاء بالمقومات السياقية والحالية التي تسيج الخطاب بالبعد النفسي والاجتماعي والثقافي، هذا البعد المركب بطبيعته اللسانية، وتعدد أوجهه يمثل المقصد الأسنى في تحرير الفعل المنجز بالقول من الزاوية التداولية.

كما إن تحليل الممارسة الفعلية للغة في التخاطب هو الضامن الوحيد للحصول على مغزى وغرض الكلام، فليست عملية التواصل مجرد اتصال عفوي سلبي بين متكلم ومستمع، بل هي عملية ذهنية معقدة تتداخل فيها أنساق معرفية واجتماعية وثقافية ولغوية غير متجانسة في الأساس[٢٠] تبحث لها عن تجانس في أسلوب تلقي المتخاطبين للعلامة اللغوية بكل إحالاتها الداخلية والخارجية، وبكل انتظاماتها الفردية والتركيبية مادامت العلامة اللسانية غير مقيدة بشكل أو معنى معين[٢١].

٢- الأسس الإبستمولوجية لنظريات لسانيات الخطاب

يعد الدارسون لسانيات الخطاب/ النص[٢٢] حلقة من حلقات التطور الموضوعي والمنهجي في نظرية تحليل الخطاب، ضمن معرفة كلية وعامة هي اللسانيات، فنشأتها، أي لسانيات الخطاب/ النص مدينة للنحو التحويلي، والذي أسهم في الانتقال من بنية

---

(٢٠) Saussure, Cours de Linguistique Generale, p38

(٢١) عن هذا التصور التداولي، ومشاغله التحليلية للفعل الكلامي يمكن الرجوع توسعا إلى المراجع التالية: Benveniste , problemes de linguistique generale , p 271 et encore Ducrot ,O.,dire et ne pas dire ,ParisHerman , p 1972 ,p 4-24et Reboul- Moeschler, pragmatique du discourse de l interpretation de l enonce a linterpretation du discourse ,Paris , Armand Colin, 1998, p13-14.

(٢٢) نستعمل في هذه الدراسة مصطلح نحو النص مرادفا لمصطلح لسانيات النص ولسانيات الخطاب بدافع تبسيطي بحت.

الجملة ومكوناتها القاعدية إلى البحث المنظم في العلاقات بين الجمل في بنية أعلى، وأكثر تجريدا يمثلها النص.

هذا ما حرص على التنبيه إليه الأمريكي **هاريس** (Z.Haris) في كتابه **تحليل الخطاب**[٢٣]، وبالرغم من كونه معنيا بدراسة الجملة وتوصيف مكوناتها، إلا أنه حثّ على ضرورة دراسة العلاقات النحوية بين الجمل ضمن مفهوم جذري في اللسانيات الشكلية (الوصفية) هو "التحويل"، إلا أن الفارق المميز بين نظرة هاريس (Z.Haris) هذه ورؤية **فان ديك** (V.Dijk) في كتابه النص والسياق، وهي رؤية حديثة وناضجة منهجيا وأكثر شمولية من سابقتها يبين شمول الوصف النحوي لهذه العلاقات في المستويين السطحي والعميق بدون الاقتصار على التغيرات الطارئة على البنية الظاهرة كما يقرها التحويليون.

وفي هذا الصدد يحرص **فان ديك** على ضرورة رعاية الارتباط المنطقي في البحث عن اتساق النصوص وانسجامها[٢٤]، والحقيقة إن **فان ديك** في ثورته على نحو الجملة ينطلق من مقدمة مفادها ضرورة إعادة بناء اللسانيات بناء سليما يعيد الأمور إلى نصابها القويم، فمادام التبليغ اللساني لا يقوم إلا في الممارسة التخاطبية عن طريق إنجاز النصوص، فإن اللسانيات يجب أن تتخذ من النص أو الخطاب موضوعا أساسيا لها.

لذا يمكن تعريفها بأنها العلم **الذي يدرس النصوص في واقعها التخاطبي دراسة علمية موضوعية**، وهذا يعني أننا سنرفض تلك الأطروحة التقليدية التي تجعل من نحو

---

(٢٣) سعد مصلوح، **"العربية من نحو الجملة إلى نحو النص"** (الكويت، الكتاب التذكاري، جامعة الكويت، كلية الآداب إعداد وديعة طه نجم وعبده بدوي، ١٩٨٩)، ص٤٠٧-٤٠٦.

(٢٤) محمد خطابي، **لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب**، المركز الثقافي العربي، ط١، الدار البيضاء، سنة ٢٠٠١، ص٣٤.

النص مجرد تابع توسعي لنحو الجملة فنحن أمام رؤيتين مختلفتين مستقلتين، ولعل هذا التوجه هو الذي أكده فيما بعد ج. م. آدام (J.M.Adam) أحد رواد الاتجاه اللساني النصي في فرنسا في كتابه عن **مبادئ اللسانيات النصية** حين قرر كون النص إنتاجا مترابطا ومتسقا ومنسجما، وليس رصفا اعتباطيا للكلمات والجمل وأشباه الجمل والأعمال اللغوية[٢٥].

إن شدة ارتباط اللسانيات النصية في المنظور الأمريكي بالنحو التحويلي يمكن القول بأن الراغب في دراسة الكفاءة اللسانية، وأهمية اللغة من حيث هي فعل وممارسة يحتاج إلى معرفة نظرية **تشومسكيي** (TChomesky) اللسانية وأبعادها الوصفية والتحليلية من خلال تركيزها في الوصف العلمي على العلاقة بين التركيب اللغوي والخصائص الفطرية لعمليتي التفكير والكلام[٢٦].

كما يقدم الأنموذج التوليدي تصورا لمبادئ صياغة الجمل وتفسيرها مما يسهل على اللساني مهمة وصف جميع الملفوظات الممكنة المألوف منها والغريب، وفهما وإمكان الحكم عليها بالصحة أو الخطأ.

إن التأثير المنهجي والنظري لهذه النظرية في لسانيات الخطاب ترك انطباعا سلبيا لدى البعض فراحوا ينفون الحاجة إلى هذا العلم ما دام يستمد نظرياته وإجراءاته من اللسانيات التوليدية التحويلية، والتي هي لسانيات جملية بالدرجة الأولى[٢٧].

---

(٢٥) J. M. Adam, elements de linguistique textuelle (theorie et pratique de l analyse textuelle, Mardaga, 1990) .p112. "le texte est un produit connexe, cohesif, coherent et non pas une juxposition aleatoire de mots , phrases , proposition ,ou actes de parole"

(٢٦) صبري إبراهيم السيد، **تشومسكي فكره اللغوي وآراء النقاد فيه**، القاهرة، سنة ١٩٨٩، ص٧٣.

(٢٧) سعيد حسن بحيري، **علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات**، ص٥٢، وانظر حلمي خليل، **دراسات في اللسانيات التطبيقية**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٠، ص٥٥ و٥٦.

وبالرغم من حداثة نحو النص إلا أن الدارسين في الشرق والغرب يولونه أهمية بارزة لقدرة نماذجه التحليلية على استنطاق النصوص من حيث تكوينها البنيوي والوظيفي والغرضي، فإجراءاته التحليلية تجمع بين الوصف الفونولوجي والمورفولوجي والتركيبي والدلالي والمنطقي والنفسي والاجتماعي والثقافي بشكل عام، وهذه الإجراءات من شأنها أن تعزز إدراك المتلقي المؤول لتماسك النص وترابطه بحسب رأي **جان كوهين**[٢٨].

٣- المصطلح النصي وازدحام المعاني

استعصى مصطلح النص على التعريف قديما وحديثا، إذ كثيرا ما تعددت الأسئلة في ماهيته، وأقسامه، وأغراضه، وتمايزه عن أشكال تواصلية أخرى، ومن بين الأسئلة الملحة؛ أي نص نعني؟ أنعني النص الديني أو الفلسفي أو العلمي أو الأدبي أو اللساني ؟ أنعني النص المكتوب أو المنطوق، أو التراثي أو الحداثي؟ أنعني الشعري أو النثري؟[٢٩]، وبازدحام هذه المعاني، وتشابكها كان من الضروري أن ننطلق من عمق التراث للبحث عن حدود هذا النسق اللغوي بخاصة.

لقد سجل هذا المصطلح حضورا مركزيا في الذخيرة اللغوية العربية والمعرفية أيضا، فقد عبر عن مرجعية القوانين المحتكم إليها في الحياة العربية الإسلامية، ويبدوا أن العرب الأوائل ميزوا بين مستويين في النص هما: مستوى النظام ومستوى التوظيف،

---

(٢٨) جون كوهين، **بناء اللغة الشعرية**، ترجمة أحمد درويش، دار المعارف، د.ط، القاهرة، سنة ١٩٩٣، ص١٨٩.

(٢٩) الحبيب شبيل، **"من النص إلى سلطة التأويل"**، ندوات جامعة منوبة، مجلد ٠٨، ١٩٩٢، ص٤٤٨

ولما كانت الرسالة الدينية نصية في شكلها فإنها أسست لكيفية استثمار المقولات الدينية في الحياة الإنسانية، ثم وجهت بطريق غير مباشرة الفكر العربي للنظر في الكون والوجود بكل أبعاده النفسية والاجتماعية والحضارية والأدبية واللغوية.

ولعل التوصيف الموضوعي لأنواع الخطاب العربي القديم هو الذي وجه الأنظار إلى تأسيس المعرفة اللغوية الصوتية والنحوية والبلاغية والمعجمية والتاريخية، والإبداع بشتى أشكاله، وقد تم هذا التوصيف في دائرة اللفظ والمعنى، وربما هذا هو السبب الذي يجعلنا نقر مطمئنين أن الحضارة العربية نصية في مبدئها ومنتهاها[٣٠]، كما تشكّل النصوص المختلفة بحضورها اليومي في اللغة والتخاطب الوعي بالوجود الإنساني والحضاري ذات الإنسان نفسه، فهي المسؤولة عن تشكل الرؤيـة والموقف والذوق.

فالنصوص على اختلاف أشكالها وأنواعها سلطة توجيهية وتشريعية وتنظيمية مؤثرة في البناء الاجتماعي والمدني بعامة، هذا وقد ورد لفظ النص في المعجم العربي ليدل على معاني سياقية متعددة، لعل أهمها: رفع الشيء، يقول **امرؤ القيس**[٣١]:

وَجِيدٍ كَجِيدِ الرِّيمِ لَيْسَ بِفَاحِشٍ .... إِذَا هِيَ نَصَّتْهُ وَلاَ بِمُعَطَّلِ **(طويل)**،

ومنه رفع الحديث، وكل ما أظهر فقد نص، يقول **طرفة بن العبد**:

وَنُصَّ الحَدِيثَ إِلَىَ أَهْلِهِ .... فإِنَّ الوَثِيقَةَ فِي نِصِّهِ[٣٢] **(متقارب)**

والنص هو التحريك حتى يستخرج أقصى سير الناقة، ونصّ المتاع إذا جعل بعضه فوق بعض، ومنصة العروس تجلس عليها لتظهر، ونص الشواء نصيصا إذا

---

(٣٠) منذر عياشي، **اللسانيات والدلالة، الكلمة**، مركز الإنماء الحضاري، حلب، سنة ١٩٩٦، ص١٥

(٣١) معلقة أمرئ القيس، **الموسوعة العالمية للشعر العربي**، رقم ١٤٣٢٤، موقع: WWW.ADAB.COM

(٣٢) **مجالس ثعلب**، تحقيق عبد السلام هارون، ١/ ١٠

صوت على النار، والنص الإسناد إلى الرئيس الأكبر، وأصل الشيء ومنتهاه ومنه نصصت الرجل إذا استقصيت مسألته عن الشيء[٣٣].

وظف هذا اللفظ في المعجم الأصولي للدلالة على اللفظ الوارد في القرآن الكريم أو السنة المستدل بها على حكم الأشياء بمعنى الظاهر[٣٤]، كما وظف في لغة النحويين من مثل ما نجده عند **ابن هشام** في كتابه مغني اللبيب: "...**ونص جماعة على منع ذلك كله**""[٣٥]، واستعمله **ابن جني** بصيغة اسم مفعول: "...**اعلم أن إجماع أهل البلدين إنما يكون حجة إذا أعطاك خصمك يده ألا يخالف المنصوص والمقيس على المنصوص..**""[٣٦].

وأشار **الرضي** إلى استعمالها للدلالة على معنى الحدث المساوي للمعنى الصريح الذي لا يقبل أكثر من تأويل واحد[٣٧]، والظاهر أن دلالة النص في تراثنا النحوي

---

(٣٣) ابن الأثير، **النهاية في غريب الحديث**، ٤/ ١٤٨، والفيروزبادي، **القاموس المحيط**، فصل النون، باب الصاد، وابن منظور، **لسان العرب**، ٣/ ٦٤٨.

(٣٤) ابن حزم، **الإحكام في أصول الأحكام**، مطبعة الإمام، د.ت.ط، القاهرة، وبتحقيق أحمد محمد شاكر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، سنة ١٩٨٠، ١/ ٤٢، وانظر التهانوي، **كشاف اصطلاحات الفنون**، تحقيق لطفي عبد البديع، المؤسسة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د.ط، ١٩٦٣، ٢/ ٤٨٧، والشريف الجرجاني، **التعريفات**، ط١، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، سنة ١٩٧٨، ص ٢٦٠٤٨٧.

(٣٥) ابن هشام، **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، تحقيق مازن المبارك ومحمد على حمد الله، دمشق: دار الفكر، د.ط، ١٩٩٦، ١/ ٢٥٣.

(٣٦) ابن جني، **الخصائص**، تحقيق الشيخ محمد علي النجار، بيروت: المكتبة العلمية، د.ت، ١/ ١٨٩.

(٣٧) الرضي الإسترابادي، **شرح الكافية**، تحقيق هادي حمودي، عالم الكتب، بيروت، ١/ ١٧٨ و١/ ٤٦٢.

بخاصة ارتبطت بالحدث والفعل، ولم تتمحض للاسمية مثلما هو شأنها اليوم، كما أن مصطلح النص في سائر القطاعات المعرفية التراثية من تفسير وأصول[٣٨] وكلاميات دلّ على شكل محدد من أشكال الكلام لا الكلام في جملته.

ربما كانت مصطلحات أخرى أكثر حضورا منه؛ منها ما يدل على أجناسه كالشعر والنثر والخطابة، ومنها ما يقترب منه وضعا واستعمالا كالخطاب والقول والحديث والكلام والقول واللفظ والرسالة[٣٩].

وفي السياق الوضعي المعجمي يمكن الزعم بأن أغلب هذه الاستعمالات تحيل مصطلح النص إلى معنى كلي هو الظهور المكتمل، ولعل هذا المعنى هو الذي ارتكز عليه التصور الحديث للرسالة اللغوية الدالة في تميزها عن الملفوظ الذي يفتقر إلى سمتي الاتساق الشكلي والانسجام الدلالي[٤٠]، أما في الأدبيات اللسانية الحديثة فقد

---

(٣٨) عن مفهوم النص عند الأصوليين ينظر الشافعي، **الرسالة**، تحقيق أحمد شاكر، القاهرة: البابي الحلبي، ١٩٤٠، ص٢٠.

(٣٩) أشار أصحاب المعجم الوسيط إلى أن ما يناسب النص من دلالة حديثة هو معنى **مولَّد**، المعجم ١/ ١٦.

(٤٠) محمد الصغير بناني، **"مفهوم النص عند المنظرين القدماء"**، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، عدد ١٢، ديسمبر ١٩٩٧، ص ٤٠، والحقيقة إن الربط بين الدلالة التراثية للفظة نص ومقابلتها الحديثة ذات المرجعية الثقافية الغربية صعب، وموقع في الاضطراب لعدم تجلي المعنى الحديث بصفاء في التصور التراثي العربي فقد استعاض المتقدمون عن النوع النصي بتسميته المباشرة شعر ونثر ورسالة ومقامة وغير ذلك كما عبروا بالنظم والمكتوب والمرسل عما يشتمله المصطلح في الثقافة اللسانية النقدية المعاصرة، انظر بسط هذا الغياب – مثلا – في نهلة الأحمد، **"ما هو النص"؟** مجلة المعرفة السورية، عدد ٤٥١، سنة ٢٠٠١، ص ٨٨. وانظر مقالتنا: **"نحو النص، مبادئه واتجاهاته الأساسية"**، مجلة علامات في النقد، نادي جدة، مجلد ١٦، عدد٦١.

تعـددت تحديدات المفهوم، وتشعبت مرتهنة باختـلاف الأصول النظرية، وغايات البحث.

لعلنا نقف مع بعضها للتعرف على هذا التعدد، وفي هذا التعدد تعبير عن حيرة معرفية ومنهجية في اللسانيات الغربية، إذ يعرفه **ايزنبرج** (Isenberg) بكونه **متتالية جملية مستعملة في الاتصال اللغوي** مؤكدا المعنى الرياضي لمصطلح متتالية، في حين يعرفه **هارفج** (Harfg) انطلاقا من مبدأي العلاقة والتجانس؛ فهو **وحدة لسانية متتابعة ومبنية بسلاسل إضمار متصلة**، كما ورد في قاموس اللسانيات **أن النص مجموع الملفوظات اللسانية الخاضعة للتحليل، فهو إذا عينة من السلوك الإنساني المكتوب أو المنطوق**[٤١]، والنص عند هاليدي (Halliday) لا يمكن أن يكون إلا **وحدة دلالية تمثل اللغة في التواصل، فقد يكون كلمة أو جملة أو عدة جمل أو قصة**[٤٢].

كما يعده عملية تفاعل لغوية في واقع اجتماعي، يتم بوساطتها تبادل المعاني، معنى ذلك أنه نوع من الحوار بين المتخاطبين باللغة، وتبرز بذلك عنده الأهمية في محاولة ربط مفهوم النص بالسياق، ومعرفة الكيفية التي يكوّن بها الناس توقعاتهم لما يتكون في النص من خطاب، ومن ناحية أخرى يركز **هاليدي** (Halliday) على ثلاثة مظاهر أساسية لسياق الموقف، تؤثر تأثيرا بالغا في معالم النص، هي: مجال النص، إذ تشكل اللغة أساسا مهما في التعبير عنه، وهو الموضوع الأساس الذي يتخاطب فيه المشاركون في الخطاب، أما النوع فقد ربطه بطريقة البناء والتكوين والعرض، مما يحينه إلى أن سكون مكتوبا أو منطوقا أو ما إذا كان سرديا أو جدليا ونحو ذلك، وأما المشتركون فيمكن وصف طبيعة العلاقة القائمة بينهم، من حيث هي رسمية أو غير رسمية.

---

(٤١) Duboi.dixionerre de linguistique(Paris:Larousse,1973) ;p156

(٤٢) Jilles siouffi, 100 fiches pour comprendre la linguistique ,p138-139.

يرى **يوري لوتمان** (Y.Lotman) أن تحـديد النص يعتمد ثلاثة مكونات هـي التعبير والتحديد والخاصية البنيوية؛ فالتعبير يجبرنا على أن نعتبر النص تحقيقا للنظام، وتجسيدا ماديا له، وذلك على أساس ثنائية سوسير (F.D.Saussure) الشهيرة التي تضع الكلام (Parole) مقابل اللغة (Langue)، أما التحديد فهو لازم للنص، فالنص يحتوي على دلالة غير قابلة للتجزئة مثل أن يكون قصة أو أن يكون وثيقة أو أن يكون قصيدة مما يعني أنه يحقق وظيفة ثقافية محددة وينقل دلالتها الكاملة، أما الخاصية البنوية فترتبط بخاصية التحديد السابقة فبـروز البنية شـرط أساس لتكوين النـص[٤٣]، أما جوليا كرستيفا (J.Krestiva) فتعده **جهازا عبر لغوي يعيد توزيع نظام اللغة، يكشف العلاقة بين الأدلة التواصلية مشيرا إلى بيانات مباشرة، تربطها أنماط مختلفة من الأقوال السابقة عليها أو المتزامنة معها**[٤٤]، ويذهب **كالمـاير** (Kalmair) إلى كـون النـص **مجموعة من الإشـارات الاتصالية التي ترد في تفاعل تواصلي يمكن أن يحدد بوضع نقطة أو علامة استفهام أو تعجب**[٤٥].

ويذهب **بارت** (Barth) إلى أن النص مأخوذ من حيث الجذر من مادة (Texte) التي تعني النسيج، ونشدد داخل النسيج على الفكرة التوليدية التي ترى النص يصنع ذاته، ويعتمل ما في ذاته عبر تشابك دائم، وتنفك الذات وسـط هذا النسيج ضائعة

---

(٤٣) صلاح فضل، **بلاغة الخطاب وعلم النص**، ص ١٥٣.

(٤٤) Kristiva , recherches pour une semanalyse ,Seuil,1969,p19

(٤٥) برند شبلنر، **علم اللغة والدراسات الأدبية، دراسة الأسلوب، البلاغة، علم اللغة النصي**، ترجمة محمود جاد الرب، ط١، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة، سنة ١٩٨٧، ص١٨٨، وانظر، فولفجانج وديتر، **مدخل إلى علم اللغة النصي**، ترجمة فالح بن شبيب العجمي، مطابع جامعة الملك سعود، الرياض، سنة ١٩٩٩، ص١١، وانظر الأزهر الزناد، **نسيج النص**، ص١٢.

فيه، كأنها عنكبوت تذوب هي ذاتها في الإفرازات المشيدة لنسيجها، ولو أحببنا استحداث الألفاظ لأمكننا تعريف نظرية النص بأنها علم نسيج العنكبوت[٤٦].

ويميز فان ديك (V.Dijk) بين مفهومين للنص إذ يمكن القـول مؤقتا بأنه ملفوظات لغوية ذات أشكال خاصة منطوقة ومكتوبة، وهو ما يعني استبعاد سائر النظم التواصلية من دائرة نصوص اللغة الطبيعية، وفي هذا المقام لابد أن يكون الملفوظ اللساني دالا ووظيفيا في التواصل الإنساني، كما أن لاستمرارية وانسجام وظائف الخطاب بالرغم من تعدد منتجيه تؤدي دورا مركزيا في تحديد سمة النصية في الملفوظات المنتجة[٤٧]. وربما جاز لنا القول باتصال الخطاب بالجانب المنطوق، بينما النص يتصل بالجانب الخطي (المكتوب)، كما يتجلى لنا على الورق[٤٨].

ربما أمكننا التسليم بهذا التمييز مؤقتا بالرغم من عدم دقته، فالنص إذن **وحدة كبرى شاملة لا تضمها وحدة أكبر منها**، وهذه الوحدة الكبرى تتشكل من أجزاء مختلفة تقع من الناحية النحوية على مستوى أفقي، ومن الناحية الدلالية على مستوى رأسي حيث يتكون المستوى الأول من وحدات نصية صغرى تربط بينها علاقات نحوية، بينما يتكون المستوى الثاني من تصورات كلية تربط بينها علاقات التماسك الدلالية المنطقية؛ ومن ثم يصعب أن تعتمد في تحليل النص نظرية بعينها، وإنما يمكن أن تتبنى نظرية كلية، تتفرع إلى نظريات صغرى وتحتية تستوعب كل المستويات.

---

(٤٦) Dubois J,et autres , Dictionnaire de linguistique 2 ed , Laroosse ,Bordas ,2002 ,p482 , Voir Ducrot ,O, Todorov, T, Dictionnaire encyclopedique des sciences du langage med Seuil, 1972 ,p 375

(٤٧) عبد القادر بوزيدة، **"فان ديك وعلم النص"**، مجلة اللغة والأدب، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، عدد١١(١٩٩٨)، ص١١.

(٤٨) بول ريكور، **"النص والتأويل"**، ترجمة منصف عبد الحق، مجلة العرب والفكر العالمي، بيروت، عدد٣، سنة ١٩٨٨، ص ٣٧.

اعتمد بعض الباحثين ما يسمى بنظرية السياق الاتصالي التي تحدد للنص وظيفة معينة فعلى عكس الاتجاهات الداخلية الباطنية التي تعرف النص بالنظر إلى مكوناته، فإن الآراء الجديدة تعتمد في نظرية النص السياق الاتصالي، وما يتضمنه عمليا، وترى أن النصوص ليست سوى منظومة من الرموز اللغوية المعبرة، وأن وظيفتها إنما هي الاتصال الاجتماعي[٤٩]، إذن فتحديد النص ليس سوى مجموعة من الرموز اللغوية المعبّرة لها وظيفة الاتصال الاجتماعي.

لا يقل عن مصطلح **النص** إشكالا مصطلح **الخطاب** في الفكر اللساني الحديث فهو يشير إلى كل كلام تجاوز الجملة الواحدة، والتي تغدّ أثناء تحليله الوحدة الصغرى التي يتكون منها، سواء كان مكتوبا أو منطوقا.

هذا ولقد ورد مصطلح الخطاب في التراث العربي في أكثر من سياق، فمن ذلك مثلا ما أورده **التهانوي** في كشافه من أنه توجيه للكلام نحو الغير للإفهام، ثم نقل الكلام الموجه نحو الغير للإفهام[٥٠] مما يعنى دورة التخاطب التي تستلزم طرفين رئيسين هما المخاطِب والمخَاطب، كما نسجل استعماله في القرآن الكريم بصيغة المصدر والفعل في الآيات التالية: قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۖ إِنَّهُم ﴿٢٧﴾ ﴾ المؤمنون: ٢٧، ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾ الفرقان: ٦٣، وقوله تعالى: ﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا ﴿٣٧﴾ ﴾ النبأ: ٣٧.

في اللسانيات الحديثة يذهب **غرايس** (Grice) إلى أن للكلام دلالات غير ملفوظة يدركها المتحدث والسامع دون علامة معلنة أو واضحة، مثل قولنا: ألا تزورني؟

---

(٤٩) محمد مفتاح، **تحليل الخطاب الشعري، إستراتيجية التناص**، ط٢، الدار البيضاء، بيروت: المركز الثقافي العربي، سنة١٩٩٢، ص١٢٠.

(٥٠) التهانوي، **كشاف اصطلاحات الفنون**، ١/ ٤٠٣.

فالظاهر من الكلام سؤال لكن الغرض دعوة للزيارة، وقد نتج عن هذه الرؤية لديه أن حدد مبادئ للحوار والحديث، تتعلق بكم العبارات وكيفية عرضها بين المرسل والمتلقي في ضوء النية الحسنة، وترابطها الدلالي، وعدم تناقضها بخاصة فيما يعرض للخطاب في مستوى المعنى من دلالات متعارضة أو متضادة.

ولعل هذه الصفة كفيلة بأن تحقق مبدأ آخر مهم يتعلق بهيئة الخطاب من حيث وضوحه، وبعده عن الإبهام بخاصة في الخطاب النثري، أما مبدأ الوجاهة فيمثل عنده مطابقة المقال للمقام أو المناسبة بين السياقين الداخلي (النصي) والخارجي (الاجتماعي)[٥١]، أما **سيريل** فينظر إلى الخطاب من زاوية انسجامه من حيث هو فعل قولي في التواصل، لابد له من شروط تحضيرية تلخصها صفة الأهلية والاختصاص، وشرط الصدق بأن يؤمن المرسل بما يقول ويفعل، في حين تشير الشروط الجوهرية إلى صدق المقاصد أو النوايا بما لا يتعارض مع المعتقد والرغبة، وفي محاضراته "نظام الخطاب" يقرر **ميشال فوكو** (M.Fouco) أن الخطاب شبكة معقدة من النظم الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تبرز فيها الكيفية التي ينتج فيها الكلام بوصفه خطابا[٥٢].

إنّ الخطاب إنجاز في المكان والزمان، ويقتضي لقيامه شروطا، أهمها المخاطِب والخطاب والمخاطَب، ومن وجهة نظر اللسانيات فإن الخطاب لا يمكن أن يكون سوى مرادف للملفوظ فالهدف الأساس من استعمال الكلام هو إيصال رسالة ما إلى شخص معين أو إلى مجموعة من الأشخاص، ولذلك فإن استعمال الكلام يستوجب

---

(٥١) براون ويول، **تحليل الخطاب**، ترجمة محمد لطفي الزليطني ومنير التريكي، مطابع جامعة الملك سعود، النشر العلمي، سنة ١٩٩٧، ص ٤٤.

(٥٢) محمد الحناش، **البنيوية في اللسانيات**، ط١، دار الرشاد الحديثة، المغرب، سنة ١٩٨٠، ص٣٧٦ وما بعده.

وجـود عنصرين لا يكون الحـديث إلا بهما وهما المتكلم، الذي يؤلف المرسلة تبعا لأهوائه ورغباته، والمخاطب الذي يقوم بفك رموز هذه المرسلة لفهمها.

لابد إذن من أن تكون هناك مرسلة يبثها المتكلم ليتلقاها المستمع الذي قد يكون شخصا حقيقيا أو وهميا متخيلا من قبـل المتكلم. فهـذا التواصل الخـارجي لا يقوم إذن إلا بوجود قطبي الحديث (المرسل والمرسل إليه)، بالإضافة إلى ضرورة وجود مرسلة تنتمي إلى نظام مشترك بين طرفي التواصل ليتمكن كل منهما من فهم الآخر وإفهامه.

أما **جاكبسون** فيميز نوعا آخر من التواصل يكون فيه المتلقي والمرسل شخصا واحدا، وهو ما يعرف بالتواصل الداخلي (Monologue)، أو المونولوج كما يشدد على أهمية التواصل الخارجي (Dialogue) في إيصال الأفكار للآخرين والتعامل معهم[٥٣]، فهو لا يفتأ يذكر الحوار الداخلي أيضا، فالتواصل مع الآخرين لا يكتمل إلا باستبطان اللغة، فمصطلح الخطاب إذن متعدد المعاني، فهو وحـدة تواصلية تبليغية ناتجـة عن مخاطِب معين وموجهة إلى مخاطَب معين في مقام وسياق معينين يدرس ضمن ما سمي بلسانيات الخطاب.

إنه تواصل لساني ينظر إليـه بوصفه إجراء بين المتكلم والمخاطب؛ أي فاعلية تواصلية يتحدد شكلها بواسطة غايـة اجتماعية، والخطاب يتنوع بتنوع الطـرق التي يتخذها المتكلمون أو الكتـاب وذلك بحسب مواقف اجتماعية وثقافية محـددة وتنتج بذلك أنـواع كثـيرة من الخطابات، متشكلا بحسب الطرق التي يتخذها المتكلمون أو الكتاب من خلال مواقف اجتماعية وثقافية محـددة وتتولد من ذلك أنـواع كثيرة

---

(٥٣) فاطمة الطبال بركة، **النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون**، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، د.ت.ط، ص٤٠.

منه مثل الخطاب الديني والخطاب العنصري والخطاب العلمي، والخطاب السياسي...إلخ، وبالرغم من أن الخطاب يتوسل دائما اللغة في غاياته فإن جوهره في حقيقة الأمر ليس لغويا، إنه هو مجموعة من النوايا والأفعال تتحقق بوساطة اللغة.

٤- لسانيات الخطاب ومقولة النوع

يقوم تصنيف النصوص والخطابات في الدرس اللساني القديم والحديث على مراعاة عدة جوانب ومعايير، لعله أهمها المعيار الشكلي والموضوعي والأغراضي أو القضوي والتاريخي، فبالنسبة إلى المعيار الشكلي يطمح الوصف اللساني إلى إبراز مكونان الخطاب/ النص من حيث بنيته اللسانية في المستوى الصوتي والصرفي والتركيبي والمعجمي، فهذه المستويات اللسانية يمكن لها أن تحدد نوع النص/ الخطاب ما إذا كان أدبيا أو غير ذلك، كما يعبر بالشكل على الصورة الهندسية التي يأخذها النص فقد يأخذ هيئة الشعر متفرعا إلى شعر ملحمي أو غنائي أو مسرحي أو يكونا نثرا، يتدرج في صور مختلفة لينتج نصوصا مسرحية أو روائية أو قصصية أو مقالية أو مقامية، أو أمثالا أو حكما أو سيرا ذاتية، أو مناظرات جدلية، أو خطبا تنجز للتأريخ أو لعرض قضايا اقتصادية أو سياسية أو قضائية أو دينية تبنى على إستراتيجية لغوية ومنطقية مميزة لهذا الضرب من النثر الشفوي المكتوب، ويكون توصيفها بناء على طول الجمل، ونظام ترتيبها، وكيفية توزيع البنى اللغوية المختلفة، وأشكال المقدمات النصية أو جمل الفاتحة، ناهيك عن تلك الخصائص الشكلية التي تميز لغة النص.

أما المعيار الموضوعي فيركن إليه للتمييز بين النصوص السياسية والاجتماعية والثقافية والحضارية والتربوية والدينية والعلمية والإشهارية والفلسفية والقانونية والوعظية والإدارية والاقتصادية، وأما المعيار التاريخي فيميز من خلاله بين النص

القديم والنص الحديث أو الجديد، وليست هذه القسمة مجرد موضعة في الزمان بل هي قسمة تعكس الفروق الجوهرية في مستويي الشكل والمضمون بين سلسلة من النصوص القديمة وأخرى مغايرة لها أنتجتها اللحظة اللغوية الراهنة بكل حمولاتها المعرفية والثقافية والاجتماعية والإنسانية.

وبوجه عام نحدد نوع النص اعتمادا على موضوعته الأساسية أو بنيته الدلالية الكبرى التي ترسم توجهه الخطابي، أما المعيار الأغراضي فقد يؤشر إلى هدف الخطاب فقد يكون مدحا أو رثاء أو هجاء، كما قد يكون وصفا أو تفسيرا أو حوارا أو سردا أو إقناعا تتشكل عبره رؤية النص التي تعكس رؤية المبدع للعالم وخلفياته المعرفية ومرجعياته القضوية التي يطرحها في السياق النص التواصلي.

لقد تشكلت عبر المداخل النظرية المختلفة منذ **أرسطو** في كتابية في فني الشعر والخطابة، وإلى أيامنا هذه تصورات تصنيفية عديدة تهدف إلى تجنيس النصوص، مما يصعب على الدارس مهمة وضع الحدود المائزة بينها، والوصول إلى تعريفات نوعية شمولية، ولعل هذا التوسع بل الاضطراب راجع بالأساس إلى الطبيعة التكوينية المعقدة لظاهرة النص في المنجز الكلامي الإنساني، فالنص رسالة لسانية مؤلفة من نسق علامي دال بمستويات دلالية مختلفة، تندغم فيها الدلالة المعجمية مع الدلالات الحافة التي يوجه إليها السياق التواصلي، ومتطلبات المقام الخارجي، مما يعني تداخلا بين رؤية الباث ورؤية المتلقي من جهة، وظروف إنتاج الرسالة الزمانية والمكانية والمرجعيات الثقافية التي تؤشر للمعطى التداولي في عملية التبليغ برمتها من جهة أخرى.

هذا ويوجه النظر في النصوص والرسائل اللغوية المختلفة إلى وجود أنواع متعددة من الخطابات تختلف عن بعضها شكلا ونظاما، إذ يمكن التمييز بين الخطاب الشعري والنثري من خلال القالب الشكلي العروضي، ومن حيث الغرض العام،

يمكن التمييز بين السردي والوصفي والطلبي والإقناعي (الحجاجي) والتفسيري والحواري[٥٤]، ومن حيث الأسلوب يميز بين النثر العلمي والنثر الفني (الأدبي)، ومن حيث الشكل الخارجي يمكن التمييز بين الخطبة والمسرحية والرواية والقصة والخاطرة والمناظرة والسيرة الذاتية والترجمة، والمقامة والمقالة وبطاقة دعوة وتقرير إداري، وشكوى وفهرس.

أما من حيث الموضوع، فيمكن التفريق بين النص السياسي، والاجتماعي، والملحمي والغنائي، ولعل من بين الدراسات العربية التمهيدية التي اهتمت بتجنيس الخطاب، وتصنيفه إلى أنواع بحسب شكله وموضوعه بناء على استقراء المدونة الكلامية العربية دراسة **إحسان النص** الموسومة بـ: **الخطابة العربية**، والتي ركزت على تشكلات الفعل الخطابي من خلال موضوعاته الأساس في المدونة المختارة، مثل الخطبة بأنواعها المختلفة فمنها ما ينجز للحث على القتال، ومنها ما هو لإصلاح ذات البين، ومنها ما هو لإعلان الزواج، ومن الخطب ما يلقى في المحافل السياسية، وقد تكون الخطب سلسلة من الوصايا سالكة أحيانا مسلكا سجعيا يشبه سجع كهان الجاهلية.

كما يمكن أن تظهر الخطبة في سياق سجالي فيما يعرف بأدب المناظرات[٥٥]، غير إن هذا التصنيف قاصر من حيث عدم شموله لكثير من الأنواع النصية التي سكت

---

(٥٤) نظرا إلى تميز الحوار ببنية خاصة من ناحية شكل الجملة، وطريقة بنائها، وأسلوب توزيع الأدوار على المتحاورين عده بعض الباحثين شكلا خطابيا مستقلا بالرغم من تقاطعه المستمر مع السرد والوصف.

(٥٥) إحسان النص، **الخطابة العربية**، القاهرة، سنة ١٩٦٣، ص، وقد علق **صالح بن رمضان** على هذا، واسما إياه بالاضطراب، وهو محق في ذلك لخلطه بين معايير تصنيفية مختلفة، ولعل ذلك راجع إلى غياب الفهم النظري لمقولتي النوع والجنس في النقد العربي بخاصة في بواكيره الأولى

عنها لتركيزه على الخطبة فعلا قوليا خاصا، ناهيك عن تداخل معايير التصنيف فلم يلتزم بإحداها بل جمع بينها في توليفة لا تميز الغرض عن القصد، كما لا تفرق الشكل عن الموضوع. ولعل من بين المحاولات المهمة التي تصدت إلى مسألة التصنيف النصي محاولة **عبد الله العشي** في دراسته **زحام الخطابات**، فقد تمخض تصنيفه عن تحديد أشكال خطابية متنوعة، لعل أهمها[٥٦]، الخطاب البياني الذي يجسده بيان سياسي لحركة أو حزب أو حكومة يعبر عن إستراتيجيتها العامة في الحكم والإدارة، مثل بيان أول نوفمبر التاريخي، والبيانات الختامية التي تصدرها المؤتمرات المحلية والإقليمية وغيرها.

كما يمكن إدراج المواثيق الدولية والأممية في هذه الدائرة، مثل **نص ميثاق الأمم المتحدة** [٥٧]. والمنظومة الشعرية في العلوم المختلفة مثل ألفية ابن مالك، وأما الخطاب الحواري فيمثل كل أنواع الخطاب التي تقوم رأسا على التحاور والمحاورة مثل: المناظرة والمجادلة والمساجلة والمسرحية والمائدة المستديرة والندوة العلمية أو

مع جيل الرواد الذين إليهم ينتمي إحسان النص رحمه الله، انظر التقسيم في: **"مدخل إلى قراءة النصوص الخطابية"**، مجلة علامات في النقد، النادي الأدبي بجدة، جزء ٢٠، مجلد ٥، سنة ١٩٩٦، ص ١٥٣، وانظر تفصيل ذلك أيضا في بشير إبرير، **الخطاب غير الأدبي، إشكالية المفهوم والمصطلح**، مجلة اللسانيات واللغة العربية، مخبر اللسانيات واللغة العربية بجامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر، العدد الرابع، ديسمبر ٢٠٠٧، ص ١٣.

(٥٦) عبد الله العشي، **زحام الخطابات**، ط١، دار الأمل للطباعة والنشر، تيزي وزو، الجزائر، سنة ٢٠٠٥، ص ١٢، وانظر أيضا بشير إبرير، **الخطاب غير الأدبي، إشكالية المفهوم والمصطلح**، ص ١٦-١٧.

(٥٧) أنجزت دراسة تداولية في نص الميثاق الأممي عنوانها التعريف والتنكير، دراسة تداولية، نص ميثاق الأمم المتحدة نموذجا إعداد **ليلى عبد الله إبراهيم آل حماد**، جامعة الملك سعود، خريف ١٤٣٣-٢٠١٢م.

الثقافية، سواء كان الحوار قائما على طرفين أو أنجزته أطراف متعددة، أو طرف واحد كما هو الحال في خطاب المونولوج المسرحي، أين تنشطر الذات إلى محاوِر ومحاوَر في الآن نفسه.

قد يتشكل الحوار كتابيا عبر محاورة شخصيات ثقافية حول موضوع نقدي أو فكري أو لغوي أو اجتماعي يعد من موضوعات الساعة، وتتولى الجرائد والمجلات نشره على صفحاتها، مما قد يثير ردودا وتعقيبات تشكل بدورها خطابات مثرية تطول أو تقصر بحسب صاحب الرد، وظروف التواصل المحيطة، وقد تتطور تلك التعقيبات المتسمة عادة بالشمول والاقتضاب فتتحول إلى نصوص وخطابات نقدية موازية تنتهج التحليل والمقارنات والتقويم وما إلى ذلك من أساليب النقد المتنوعة. وأما الخطاب الشارح فيقدم تفسيرا للبنية اللغوية الموظفة للتعبير عن الأفكار والمضامين المختلفة، معززا الوظيفة المعجمية للغة التي حددها نموذج **جاكبسون** في التواصل، والظاهر أن وظيفة الشرح تنسجم مع أنواع نصية كثيرة متداولة في المقام المدرسي بصفة أساسة، من مثل ما نلفيه في شروح النحو والبلاغة والمحاضرات الجامعية في عصرنا الحالي.

وتمثل الحواشي والتعليقات الهامشية نموذجا لغويا حيا لهذا الخطاب الشارع الذي تتعدد مستوياته وأغراضه. وفي هذا السياق يشير **عبد الله العشي** إلى اندراج أنواع نصية تحت **الخطاب الشارح** مثل الشرح الإبداعي ولتحقيق المخطوطات. بينما يمثل الخطاب السردي قطب الرحى في دائرة الاهتمام اللساني النقدي، إذ درجت الدراسات في هذا الإطار على تمييز السرد باعتباره فعلا قوليا يقوم على حكاية الأحداث في زمان ومكان ما، قد يكونان حقيقيين وقد يكونان متخيلين.

من القوالب الشكلية التي يهيمن عليها السرد القصة والرواية والسيرة والترجمة الشخصية والخبر التاريخي والصحفي، والمقامة[٥٨].أما الخطاب المترجم فيمثل نصا موازيا للنص الأصلي الذي تمحورت عليه عملية الترجمة من لغة إلى أخرى.

كما يلحق بهذا النوع نقد الخطاب المترجم، وهو خطاب مواز أيضا، ولكنه مواز بالنسبة إلى الفرع. كما يشير الباحث إلى أنواع نصية أخرى يكثر تداولها في الخطاب اليومي مثل نصوص الرسائل الإخوانية والرسمية (الإدارية) والرسالة النقدية، ونصوص الوصايا بموضوعاتها المختلفة فهناك الوصية التربوية، والوصية الدينية، والوصية الأدبية النقدية مثل وصية **بشر بن المعتمر** في الصحيفة المنسوبة إليه، ووصية **ابن أبي الإصبع**، ووصايا الجاحظ في موضوع حكاية النكتة بلسان العامة، وقد تصاغ في قالب شعري أو نثري، والوصايا بوجه عام لا تنفض يديها من الإقناع والإلحاح على فعل شيء، وسلوك مسلك ما في الحياة يتوجه بها الموصي إلى الموصى يحثه فيها على إنجاز عمل ما، ولعلها الخطاب الأكثر إنجازا لما يعرف بالفعل الطلبي[٥٩].

---

(٥٨) يمثل النص السردي سلسلة الأحداث المتتالية زمانيا، والمعبر عنها لغويا بالأفعال والجمل وفق منطق يبدأ بمقدمة توطئ لموضوع تستمر أحداثه في التطور والتفرع إلى أن تنتهي بخاتمة ما، وبحسب الترجمات العربية للمصطلح (Texte Naratif) فهو القصة الشفوية أو المكتوبة التي تقوم بنيتها العامة على سرد حكاية، تقدم على أنها متخيلة أو أن أحداثها قد وقعت فعلا، مجموعة من الباحثين (محمد الخبو، أحمد السماري ومحمد نجيب العمامي وعلي عبيد ونور الدين بنخود وفتحي النصري ومحمد آيت ميهوب)، **معجم السرديات**، إشراف محمد القاضي، ط١، دار محمد علي للنشر، دار الفارابي، لبنان، مؤسسة الانتشار العربي، لبنان، دار تالة، الجزائر، دار العين، مصر، دار الملتقى، المغرب، سنة ٢٠١٠، ص ٤٥٧.

(٥٩) صالح بن رمضان، **مدخل إلى قراءة النصوص الخطابية**، مجلة علامات في النقد، جزء ٢٠، مجلد ٥، ١٩٩٦، ص و١٧٠١٥٢، وانظر بشير إبرير، **الخطاب غير الأدبي، إشكالية المفهوم والمصطلح**، ص ١٥، وعبد الله العشي، **زحام الخطابات**، ص ١٥٠-١٣٨.

يمكن تمييز أنواع أخرى من الخطابات المرافقة للخطاب الأصل مثل خطابات التقريض والتصدير والشهادات التي تقدم بين يدي كتاب أو مرجع علمي ما سواء نشرت معه مثل التصدير، أو وردت منفصلة عنه مثل الشهادة والتقريض(٦٠).

هذا ويقوم النقد اللساني النصي على وصف مستويين أساسين يعبران في ترابطهما عن العلاقة التي تربط النص بالغرض، ولنقل بين الوضع (النظام) والاستعمال؛ وهذان المستويان هما(٦١): المستوى المقطعي (niveou sequentiel) والمستوى التداولي (niveou pragmatique)، فإذا كانت النصوص المنجزة أبنية نسقية غرضية ذات طبيعة معقدة تشبه في تعقيدها بيت العنكبوت الذي تتعالق خيوطه الرفيعة وتتكامل مشكلة بناء هندسيا محكما لعل أهم وصف فيه كونه منسجما متعاضدا.

إن لسانيات النص تضطلع بمهمة وصف هذا التواشج وتبيان مقوماته، وقيمته المادية من حيث هو صورة معبرة عن غرض الخطاب في التداول اللساني البشري، ولن يتحقق ذلك إلا بالتمييز بين مستويين من الدراسة هما المستوى المقطعي والمستوى التداولي، وكيفية عمل العناصر المتضامنة في إطار هذين المستويين انطلاقا من خبرة قرائية ذهنية يتوافر عليها المحلل الذي يصب بمفهوماته على النص صبا، وليس العكس على حد تصور **فرانك سميث** (Frank Smith)(٦٢).

---

(٦٠) المرجع نفسه، ص ١٥٠، كما أضاف الباحث شكلا آخر أسماه بالخطاب التصنيفي ومثل له بالمعاجم التحليلية والموسوعات ودوائر المعارف والكشافات والفهارس المتخصصة، انظر المرجع نفسه، ص ١٧٩-١٨١.

(٦١) Ibid, p 84.

(٦٢) عبدالقادر الزاكي، **من النموذج النصي إلى النموذج التفاعلي**، ص ٢١٨، وانظر تفصيلا محمد الأخضر الصبيحي، **مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه**، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١، بيروت، سنة ٢٠٠٨، ص ٣٣.